منهج التاريخانية والوعي العربي

أ. أمحمد شيخ(*)

تقوم التاريخانية عند العروي على الاهتمام بالممارسة وبمنطق الفعل والعمل بدل منطق الخطاب والقول، الذي كثيرا ما يهيمن ولا يزال على ثقافة المجتمعات العربية الإسلامية عموما، لهذا يرفض العروي «كل التفات إلى مثل هكذا منطق، ملتفتا بدل ذلك إلى العمل والفعل البراكسيس وغالبا ما يقيم تعارضا بين منطق الفعل الذي يدعوه بـ: عقل الفعل، ومنطق التعبير والخطاب الذي يدعوه بـ: عقل الاسم»(١).

حسب العروي «العرب يسبقون العمل على العقل، الفرع قبل الأصل في حين أنا أقول (الكلام للعروي) نراهم لا يفعلون شيئا سوى الكلام»(٢)،ليس للتاريخ إلا اتجاه واحد ومعنى واحد، مما يجعل قوانين التطور التاريخي تتسم بقدر من الثبات وتفرض نوعا من حتمية المراحل وهذا ما يميز تحديدا التاريخانية الماركسية أو التاريخانية الموضوعية، باعتبارها تاريخانية ثورية، فهي كما يقول العروي في عمله (العرب والفكر التاريخي): «ليست مرحلة تاريخية فقط من التطور الفكر التاريخي، بل هي حية تبعثها دائما ظروف مشابهة التي واكبت ظهورها أول مرة، لكنها في نفس الوقت ليست بجامدة، تتطور بتطور الظروف عندما تقوم الثورة وتشرع في تحقيق أهدافها، تتغير وضعية تلك الماركسية وتتغير خصائصها»(٣).

(*) شعبة الفلسفة - جامعة تلمسان - الجزائر - الهاتف / ٠٧٧٣-٨١-٢٨-٩٩
Email/ mchikh45@yahoo.com

(١) العروي (ع) مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٣٥٧ و٣٦٤.

(٢) العروي (ع) الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، ص ٢٥١.

(٣) العروي (ع) العرب والفكر التاريخي، دار التنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٩٣.

الماركسية المعنية هنا بالتغيير يطلق عليها عادة بـ: الدوغمائية إيماءً إلى جمود نصوص العقائد وعدم تعمق معتقدها في معانيها الدقيقة، ويطلق عليها العروي عادة بكلمة: عقدية، وهي أي التاريخانية حينما ترفض كل إطلاقية دوغمائية، تدعى امتلاك الحق والحقيقة تؤكد على تسميتها بـ النسبوية أي الحقيقة لدى العروي نسبية، ولن تكون البتة مطلقة لأنها محكومة بظروف إنتاجها وظهورها، وأكبر عدو للفكر التاريخي هو الحقائق الجاهزة والمطلقة الصالحة لكل زمان ومكان. فالتاريخ لدى العروي «هو وحده القادر على إنتاج الحقائق، وهو وحده الذي بإمكانه إضفاء عليه طابعا نسبيا، ويجعلها خاضعة لصيرورة المجتمعات نفسها، فالعلم لن يكون أبدا مجرد قراءة وتأويل لأقوال العارفين .. ولعلى سمة النسبية وتعليق الأحكام المطلقة سمة أساسية لفكر الحداثة ذاتها، فهذه لا تدعي الإطلاقية والأحكام النهائية، إذ لا شيء فيها كلي ونهائي، فلا الديمقراطية ولا العلم ولا التقنية ولا حتى الإيديولوجيات التي تفسر هذه التجارب (النزعة الاقتصادية والنزعة الوضعية والليبرالية والماركسية) لا أحد منها يدعي أنه حكم مطلق وقيمة مطلقة»[١].

من هذا المنطلق تمنح التاريخانية إمكانات عديدة للنخب الثقافية والفكرية كي تمارس نقدها الحي بصورة حرة، من دون قيد عقدي أو عرضي أو طائفي فهي تفتح المجال أمام المثقفين لينجزوا أدوارهم الحقيقية داخل مجتمعاتهم لكونها أدوار تسهم بشكل فعال ومباشر في عملية التطور التاريخي، فوحدها النخبة بإمكانها حسب العروي «امتلاك وعيا تاريخيا وتاريخانيا ومن ثم تقوم بالتخفيف من حدة الحتمية التاريخية ويجعل المجتمع يعيش نوعا من الطفرة واقتصاد الزمن»[٢].

ولربما سيكون ما تحمله التاريخانية من نواة صلبة بتعبير مؤرخ العلوم «لاكاتوس» Lacatus هو كونها تحمل روحها الجانب الفلسفي الملازم للحياة الواقعية الاجتماعية على وجه الخصوص، فهي تنفي أي تدخل خارجي في التاريخ، وفي تسبب الأحداث بحيث يكون التاريخ هو سبب وخالق ومبدع كل ما روي ويروى عن الموجودات.. أو بمعنى آخر كل ما يقع في المجتمع الإنساني هو نتيجة التفاعل الاجتماعي الحاصل بين البشر أو تفاعل البشر مع

(١) محمد سبيلا: مفهوم التاريخانية عند العروي، ضمن عمل جماعي من إعداد: عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٤٦ و٤٧.

(٢) العروي (ع) : العرب والفكر التاريخي، المرجع السابق، ص ٢٢٦ و٢٢٧.

البشر ومع المحيط البشري والطبيعي، وأن للأحداث أسباب عيشية يتعين على البحث التاريخي الكشف عنها قصد التمكن من تشخيصها.

في جل أعمال العروي التي حاولت قراءتها بروية وأناة كشفت لي حقيقة وهي أن العروي يصر على ضرورة الاعتقاد التالي: إنه ولاستدراك التأخر التاريخي ينبغي امتلاك روح الحداثة والتنوير أي الالتفات وعلى الدوام إلى القرن التاسع عشر، ومثل هذا الاعتقاد لا يلزمنا بالقول بأن الحداثة تقدم لنا برنامجا تفعيليا عن مشروع ينهض الهمم، ولإخراج المجتمعات العربية الإسلامية من مأزقها التاريخي، بل يحاول العروي أن يقدم رسما أوليا لبعض المعالم الفكرية الأساسية لها، وذلك انطلاقا من نموذج تاريخي أصبح كونيا هو الحداثة الأوروبية، وبالأخص عقلانية القرن التاسع عشر وفلسفة الأنوار في أوروبا: «منه كانت الدعوة إلى ضرورة استيعاب العرب مقومات ومكاسب العقل الحديث من عقلانية وتاريخانية وفردانية وفعالية مميزا بين إيديولوجيا وسياسة الغرب الإمبريالي الحالي، وبين الفكر العقلاني الأوروبي الحديث ذاته، أي بين المنهج والإيديولوجية»[1].

يبدو العروي جد واعيا لأهمية التاريخانية الفلسفية والمنهجية التي عرفت بلورتها ونضجها في مرحلة الكتابات الوسطى أي المرحلة الفلسفية، إذ لم تكن بعد قد تشكلت خلال مرحلة الإيديولوجية العربية المعاصرة، فالعروي حينما يعترف بأن مفهوم التاريخانية ينبني غامضا وملتبسا فإنه تمكن من ملامسة وبصورة تاريخانية مضمونها الفكري الذي تحول لديه بالتدريج إلى شبه سياق مذهبي، طبعا منزوع عند دوغمائيته كما سبق وأن أشرت، فهي لا تدعي أبدا بالنسبة العروي إطلاقيتها وشموليتها وخاصة عندما حددها بأنها ثورة فكرية أساسية في مجال فهم الظواهر الإنسانية، فإذا كنا اليوم كما يقول: «لا نفهم أي شيء من شؤون الماضي إلا بالرجوع إلى ظروف نشأته واستحضارنا لأسباب نزوله وأن وقائع التاريخ هي منجزة وليست تجليات كحقائق وراثية[2].

ولكن من الضروري طرح الإشكال التالي خاص ببحثنا هذا: هل هناك علاقة ضرورية بين الماركسية الموضوعية التي يتبناها العروي في (الإيديولوجية العربية المعاصرة) ومفهوم

(١) محمد سبيلا: مفهوم التاريخانية، المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢) العروي (ع): مفهوم التاريخ، الجزء الأول، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ص٣٦٥.

التاريخانية التي تبلور مؤلفات المرحلة الوسطى؟ هل الثانية امتداد للأولى أم مراجعة أم تعديل لها؟ أو هي صيغة لا تختلف عن روح الماركسية؟

يعتقد العروي أن فلسفة ماركس هي فلسفة تاريخانية بامتياز ويدرج ماركس ضمن كوكبة المفكرين الذين يندرجون في سياق هذا التيار الفكري الجارف الذي يضم ميكيافيلي، فيكو، هورد، هيغل، دالتاي وفرويد وكروتشيه .

أية ماركسية نعتمد في الأيديولوجية العربية المعاصرة؟

ماركسية موضوعية تتلون بقول العروي : «بأوضاع الأمة العربية، معاكسة بذلك الماركسيات الذاتية التي يختارها المرء عربيا كان أو غير عربي، الماركسية التي يجد العروي تواقا إلى تحقيقها ومن خلال تبنيها من قبل الإيديولوجية العربية إلى ماركسية إنجلز، إن الماركسية في اعتقاد هذا الأخير علم كالحساب والبيولوجيا، تلقن كما تلقن العلوم المذكورة وتنفذ إلى العقول بنفس الطرق، في حين أن الإيديولوجية العربية المعاصرة تنتهي باعتماد الماركسية وتقتنع بصلاحيتها على أساس منطق المنفعة»[1]، إن طرح الماركسية من موقع إيديولوجي غير طرحها، وتناولها من منظور علمي يبعدها عن الجدال والسجال الإيديولوجي.

طبعا الماركسية التي يقف عندها العروي هل تلك التي تحدث دائما تجديدا على مستوى قراءتها، إذ كثيرا ما وقع قراء الماركسية التقليديون في مغالطات في تأويل كلمات وتعابير ماركس الملتبسة والغامضة والمترددة والمبهمة بعض الأحيان، لهذا فالقراءة الجديدة والدائمة للماركسية تضعنا أمام اكتشافات علمية جديدة، فالهجوم الذي شنه ألتوسير Althusser ضد الفهم التاريخاني للماركسية لم يزد العروي إلا قناعة بأهميتها، بحيث أمد له مقاربة جديدة بإمكانه أن ينفتح عليها كي يبقى على ماركسيته، وهي أنها هذه الأخيرة لم تعد تمثل بالنسبة إليه فكرة يقينية وصحيحة وأرثوذوكسية مقلقة... بل رأى أنه من الضروري وضع الماركسية العفوية التي تنشأ في كل مجتمع حسب متطلبات ذلك المجتمع مع اعتبار التطورات الممكنة، ومازلت مقتنعا أن الأمة العربية الآن في حاجة إلى أن تتلمذ على الماركسية التاريخانية، لا أقول أن «الماركسية التاريخانية هي لب الماركسية وحقيقتها المكنونة وإنما اكتفي بتسجيل واقع

(١) العروي (عبد الله): العرب والفكر التاريخي، دار التنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ٦٦ و٦٧.

والتقيد به، وهو أن الأمة العربية بحاجة في ظروفها الحالية إلى تلك الماركسية بالذات لتكون نخبة مثقفة قادرة على تحديثها ثقافيا وسياسيا واقتصاديا، وبعد تشييد القاعدة الاقتصادية يتقوى الفكر العصري ويغذي نفسه بنفسه»[١].

لا يرى العروي أي حرج في استعارته المنهج الماركسي لإنجلز، لكونه المنهج الذي عاصر إحتياج العالم الموضوعي مجال الفلسفة، ففي تناوله لمفهوم الدولة نجد إنجلز بقول العروي: «قد تعامل مع حقيقتها انطلاقا من الحاضر المعقد فقام بتبسيطه وقرأ تاريخ آثينا على ضوئه، لم يقيم بعملية بناء وتركيب، لم يتتبع تطور كل عنصر من عناصر الدولة الأثينية كما يفعل مؤرخو النظام، العملية التي قام بها أساسا إفتراضية عقلية أكثر مما هي استنباطية»[٢].

من الأسئلة التي بدا لنا ضروريا الوقوف عندها والمتعلقة مباشرة بإلتزام المثقف العربي بالتاريخانية بإعتبارها نزعة ثورية حضارية وإنسانية تكمن تحديدا أن البحث عن الكيفية التي من خلالها يتمكن المثقف العربي المؤمن بضرورة التنوير ومنه تثوير العقل العربي أن يكون اليوم تاريخانيا؟ طبعا لن تكون التاريخانية إلا تقويما المنتج الثورة ضد التقليد المعيق لكل حركة طلائعية ينبغي النهوض بالمجتمع العربي نحو حداثة مأمولة، والتقويم المذكور حسب العروي «يهدف إلى خلق وعي تاريخاني في هذا المجتمع الذي يجب تطويره لكي يتعود على إدراك تدرج الأنظمة الاجتماعية في سلم زمني معين ويحكم على كل القضايا التي تتعرض على ضوء هذا التدرج الفعلي لا على ضوء حقيقة مرقومة أزلية على لوح محفوظ»[٣].

لم يكن في استطاعة التاريخانية أن تكون ممارسة نقدية جذرية دائمةو مراجعة مستمرة، وموقفا للتقويض والرفض: تقويض ورفض يكونان هما البناء ذاته، فإن هذا لا يعني أن الماركسية لا يمكنها أن تكون نقدا، ربما كان الأمر عكس ذلك بقول المفكر سعيد بنسعيد: «فالماركسية هي درس النقد، والثورة ليس درس ما نحقق في الماضي كإنجاز وأنما الاستفادة من الكيفية التي أمكنه أن يتحقق بها فقط»[٤]، إذ كثيرا ما العقل العربي تماثلا تعسفيا بينه

(١) العروي عبد الله:العرب والفكر التاريخي، المرجع السابق، ص٦٨.
(٢) العروي(عبد الله): مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٩٨، ص٦٠.
(٣) العروي عبد الله: العرب والفكر التاريخي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٥٢.
(٤) سعيد بنسعيد: الإيديولوجيا والحداثة، قراءات في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٥٧.

وبين أرسطو، إذ قاموا فسجلوا كل ما قاله، ثم صوره على شاكلتهم، فجعلوا منه مفكرا يوافق ميولهم وتطلعاتهم، وهاهم اليوم كما يقول العروي «يتعاملون مع ماركس بنفس تعاملهم مع أرسطو وماضي أرسطو رضوخا لما تمليه عليهم أوضاعهم التاريخانية، لا شك أنهم يقرؤونه قراءة غير متسقة ولا مكتملة، ولا واعية تمام الوعي بذاتها، لكن حتى في شكلها الحالي القاصر، نعتقد أنها تتميز جذري عن القراءات الجارية في الغرب والتي قد يتولاها شخصيا بعض المثقفين العرب»[١].

فالماركسية الموضوعية التي تمارس نقدا عن الرؤية المغلقة للماركسية والتي حاول العروي رسم خطوطها العريضة في عمله (الإيديولوجية العربية المعاصرة)، «هي التي تفرض نفسها على المفكر العربي كمنتهي، ونتيجة حتمية متضمنة في الأدلوجة التي يؤمن بها ويعمل على توزيعها والتي يروج لها وبجانب كونها موضوعية فإنها وضعانية ...فهي في مجالات الاقتصاد والاجتماع والفكر لا تختلف بقول العروي موضوعا أو منهجا عن مذهب أوغست كونت أو هربرت ماركوز، وحين يفصلها المفكر العربي على غيرها فلأنها تبدو أكثر إتساقا وأكثر انتقادا للغرب البرجوازي»[٢]، لقد تمثلت الماركسية بالنسبة للعقل العربي سند مواجهة للغرب بحيث سهلت عليه من إيضاح ملامحه كخصم وكعدو، فالنزعة الوضعية ذات النفحة العلمية القوية، ورديفتها النزعة التاريخانية التي هي مواصلة للسير في طريق هيغل وأوغست كونت، وهي تحمل في أحشائها بذور نفيها العدمية الأوروبية التي ستعبر عن نفسها قبل وبعد الحرب العالمية الأولى من خلال النزعة العسكرية والألمانية والنازية، طبعا الأمر بالنسبة للمثقف العربي لا يكمن فقط بالأخذ بالماركسية وتحويلها إلى داخل اللغة العربية دائما يجب أن يتم تطبيقها كمنطق ضمني في أبحاث وتحليلات جديدة وجدية حول ماضينا وحاضرنا، إلا إذا فسرنا بكيفية مقنعة نقاط غامضة من التاريخ العربي أما إذا بقيت الماركسية عبارة عن عرض بيداغوجي مبسط لمقولات ماركس في التاريخ الاجتماعي والسياسة ممثلة بأمثلة مأخوذة من مجتمعات وتواريخ بعيدة عنا، فستكون بمثابة فلسفة ضمت إلى فلسفات أخرى يختار المرء بينها ما يوافق مزاجه وأحواله الحياتية[٣].

(١) العروي (ع) : الإيديولوجيا العربية المعاصرة،المرجع السابق ص ١٨٦.
(٢) العروي (ع) : المرجع نفسه ص ١٨٥.
(٣) العروي (ع): العرب والفكر التاريخ، المرجع السابق ص ١٦١.

في تحليله للوضع العربي المتأزم وللوعي المتخلف بالمقارنة مع نموذج متمدن ومتقدم يطرح العروي مشروعه ضمن ما ينعته بـ: التاريخانية والماركسية الموضوعية، إذ يجد صعوبة في إحداث الحداثة أو الأنوار المنشود في ظل إنشداد الوعي العربي الشاقي، والبائس إلى الماضي الذي أسس من خلالها إيديولوجيات منغلقة هي الأخرى تعاني من بؤسها ودوغمائيتها، تنتج أفكارا لكن مليئة بالوهم بحيث صارت كل إيديولوجية تحمل دلالة الأوهام التي يستغلها المتسلطون ليمنعوا عموم الناس من إكتشاف الحقيقة، فقد يستعملها الشيخ الذي يصر على إبقاء الصراع والمواجهة من منطلق التقارب بين الشرق والغرب متوهما أن المجابهة القديمة هي التي تستمر، والسياسي المفرق في خطابات تضخيمية تنتج بدورها الأوهام إلى الدرجة التي تتمكن من خلالها توزيع وبصورة هستيرية الخطابات التي تؤجج الصراع ضد عدو لا يزال اللحظة مجهول المعالم وتقني مفتون بما ينتجه تقليدا عن الغرب[1] ولقد رأى العروي في فكر ماركس النموذج المخلص من إيديولوجيات الزائفة لكن بأخذ ماركسية الموضوعية أو التاريخانية طبعا اختبار للماركسية، وكما يشير العروي في العديد من المناسبات لم يكن من موقع التنظير أو التأمل بقدر ما كان مرتبطًا باختبار إستراتيجي أملته عليه المرحلة قائم على المصلحة المنفعة المبنية على إستراتيجية خطابية، فالماركسية المقصودة هنا هي الماركسية المعدلة والتي أخضعت لنقد النقد من قبل العديد من الفلاسفة والمؤرخين وعلى رأسهم هجوم «لويس ألتوسير» L.Althusser على التفسير التاريخاني لماركس، والذي كان قد أسهم في معاودة قراءة الماركسية برؤية نقدية جذرية من طرف العروي، ومنذ الدعوة إلى التخلي عن الماركسية الدوغمائية العقدية التي توزع الوهم والإحباط داخل عقول الناس، والتي أسرتهم منذ زمن طويل، لكن مع نقد الماركسية في فكر ما يسميه العروي بالماركسية الموضوعية أو التاريخانية، تحررت الماركسية من انغلاقها المقيت، لقد صارت الماركسية ضرورة إستراتيجية، إذ صارت في حد ذاتها أساسا لمدرسة الفكر التاريخي وهذا الأخير هو بمثابة عيار المعاصرة و إذا تم التخلي عن ذلك الذي أغرق المجتمع وبالأخص مجتمعنا العربي في بحر الحاضر الدائم والجارف، إلى الدرجة التي تغدو فيها مكرسا للفكر السلفي الدوغمائي ولربما كان السبب مباشر في إعاقة وتعطيل إحداث النهوض العربي المأمول.

---

(١) العروي(ع): الإيديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، ص ١٨٧.

من هذا المنطلق تتمثل الماركسية الموضوعية أو التاريخانية بكونها مخلصا أو منقذا من ظلامية الفكر البائس، فالسبيل إلى النهوض مرتبط لدى العروي بالتاريخانية إذ وبفضلها يتسنى لهم وعي تأخرهم وتخلفهم التاريخيين وواقعهم الذي سيطرت عليه النظرة المطلقية، لذا فإن التاريخانية ترفض مثل هذه المطلقية «لذا فإنه وبالتاريخانية نودع نهائيا مطلقات جميعها ونكن عن الاعتقاد أن النموذج الإنساني وراءنا لا أمامنا وأن كل شيء يقدم إنما هو في جوهره تجسيد لأشباح الماضي، وأن العلم تأويل أقوال العارفين»[1].

إن الخروج من التخلف والتأخر التاريخيين لن يتم إلا بتبني المجتمعات العربية للتاريخانية لكونها رؤية تحرك وتفعل إرادة العمل و إرادة النهضة والتحرر والتقدم والترقي، لا يحصل إلا إذا نظرنا إلى الأمام حيث المستقبل وأن نكف عن النظر إلى التراث أو التقليد لاعتباره منبع نهوضنا الحضاري، وعليه فالأخذ بالماركسية الموضوعية، طبعا بعيدا عن الجعل منها اعتقادا دوغمائيا، و إنما الأخذ بها كإستراتيجية عمل تكمن في تبني الرؤية النقدية لمفاهيم عصر الأنوار والتي شكلت مفاهيمه بنية فهمنا ووعينا العربي ولأجل بلوغ هذه اللحظة يقترح علينا العروي «خطة مستقبلية يكون سبيلها تجديد وعينا بالتاريخ:

١. إحياء التراث.

٢. استيعاب منطق الحضارة العصرية.

٣. تحقيق تنوع يعترف به العرب وغير العرب»[2].

فمن الضروري استيعاب منطق العصر المتمثل في الآخر بالتاريخانية، أمام الإستراتيجية الحربية الإسرائيلية كان السبب في عدم استيعاب مثل هذا المنطق، فتبني منطق الواقع أمر ضروري بل شرط أساسي، ليعين الذات العربية ضمن الثقافات العربية والتي تدفع إلى التخلف والتأخر التاريخيين.

يتضح ذلك في التعامل اليومي مع مؤسسات الدولة التي لم تتجاوز في تعامله معها العربي

(١) ابن شرقي (ابن مزيان): التاريخ والمصير، قراءات في الفكر العربي المعاصر، دار الغرب، وهران، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ١٠٦.

(٢) العروي (ع): ثقافتنا في ضوء التاريخ، دار التنوير للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص ١٦٠، وانظر.... عمل «ابن شرقي بن مزيان» التاريخ والمصير ص ١٠٧.

مخياله الاجتماعي المبني على القبيلة والعشيرة إذ مازال الناس عندنا ينظرون إلى الوظيف العمومي كهيئة لا كخدمة، ما زالت العلاقات بين الموظفين علاقات إحسان وولاء، مازال العامل في تحديد الوظيفة هو الحاجة الإجتماعية[١].

في تطرقه إلى مفهوم (الإيديولوجية) يقف العروي عند أهم بحث يحاول أن يشخص واقع هذا المفهوم داخل الفضاء العربي، والذي أصدره سنة ١٩٦٤ تحت عنوان: (الإيديولوجيا الانقلابية) مؤكدا أن الكيان العربي قد إنهار تاركا فراغا مقلقا في الأذهان والنفوس، فلا بد من مثل هذا الفراغ بأدلوجة يفترض فيها أن تكون إنقلابية لكي تلائم الوضع الحالي، لهذا استوحى الانتقال من الإيديولوجية التقليدية الموروثة منذ ظهور الإسلام، إلى الإيديولوجية الانقلابية، هي لن تكون إلا عصارة فلسفة اجتماعية سابقة لها، يتغلب على الجبر الإلهي لنجعل الحتمية التاريخية في أذهان الثوريين العرب مكانه.

إن سبب عدم تحقيق النهضة المأمولة يرجع إلى عدم التفات الزعيم (القائد السياسي) إلى الإديولوجية، ومنه كان الانخراط.

فما يحدث لنا من فراغ وانكسارات «يرجع إلى عدم امتلاكنا لإيديولوجية قادرة على توجيه العقل العربي نحو تحقيق التطور الفعلي والحقيقي، لن نكتسب النجاح لأية ثورة عربية إلا إذا تبلورت قبل الثورة أدلوجة انقلابية عربية، مأخوذة من فلسفة اجتماعية انقلابية عربية»[٢].

في الواقع إن تحمس البيطار بإيديولوجية انقلابية الثائرة على كل ما هو تقليدي إلى درجة تأكيده على شمولية تمثل هذه الإيديولوجية حيث يقوم بطرد كل ما هو تقليدي داخل كل المؤسسات الاجتماعية، السياسية، التربوية وحتى الدينية، ومنه ينزاح البيطار إذا جعل الإيديولوجية الانقلابية شمولية مطلقة، ومنه يضعنا أمام جبرية من نوع آخر، جبرية تاريخية وهو حسب العروي لم يقم بتبريرها وإنما جعل منها عقيدة على العقل العربي، لقد ظن البيطار بقول العروي أن العرب في حاجة إلى عقيدة.

إن العروي في قراءته لعمل نديم البيطار (الإيديولوجية الانقلابية) ١٩٦٤، ومارس نوع من نقد مؤسس على محاكمة قائمة بدورها على ما هو صحيح وما هو خاطئ ولم يكن نقد علمي

(1) (El araoui (A) : voir islam et modernité.

(٢) العروي (ع): مفهوم الإيديولوجية (الأدلوجة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ١١٨.

مؤسس وأصيل، لقد حاكم العروي البيطار «لا يلبث القارئ الطلع على الثقافة والتاريخ الغربيين أن يدرك أن المثل الوحيد الذي يدرسه المؤلف (يقصد هنا البيطار) بكيفية مفصلة، الذي تنطبق عليه أحكامه جميعها، هو انقلاب ١٧٨٩ الفرنسي، أما الأمثلة الأخرى، النصرانية، الشيوعية والفاشية والنازية، فإنه يذكرها من حين إلى آخر لكي يظن القارئ أن ما قيل في حق المثل الأول ينطبق عليها أيضا، لكن الظن خاطئ في غالب الأحيان، لقد استغل البيطار دراسات بعض المؤرخين الاجتماعيين التي استهدفت تشريح الثورة»[١].

الجبر التاريخي يقتنعوا أنهم غير مختارين، بل أنهم مضطرين إلى تقبل أدلوجة ثورية، ومثل هذا الاعتقاد ضروري كل الضرورة، إذ على أساسه تقوم الإيديولوجية الانقلابية والتي من دونها يستحيل الحديث عن كل تحرر للإنسان العربي من أدغان الإيديولوجية التقليدية، لم يكن البيطار مؤسسا لإيديولوجية أصلية تميز المجتمع العربي، و إنما وعلى الرغم من عملية حذفه، فإنه كان في غالب الأحيان تلفيقي، فهو حسب العروي «لا يدعو إلى إيديولوجية محددة بل يدعو إلى أدلوجة الانقلاب المستقاة من تجارب التاريخ الغربي إذ ما استهواه في أوصافها، حتمية التاريخ والحرية المطلقة والسلوك الكلي، هو تناقضها مع التفكير التقليدي: المطلوب إذن هو رفض التقليد، بأي وسيلة والأدلوجة المطلوبة في ظروف العرب الراهنة هي أدلوجة الرفض»[٢].

يبدو العروي غير مطمئن لموقف البيطار الجاعل من تاريخ العرب كله ملزم بالسير وبصورة حتمية لتاريخ العرب، ونجده يؤكد على ما يلي: «إن الإيديولوجية العربية وظفت حتى الآن كقناع يسهل على العرب اكتشاف ما يشيده الغرب فوق أرضهم، فقد حان الوقت لكي تسابق الإيديولوجية العربية ممارسة ذلك الغرب وتسبقها، ولا مبرر لهذه الدعوة حسب العروي إلا فرضية واحدة، مستخرجة من واقع التاريخ ذاته، وهي أن الدور التاريخي الغربي الممتد من عصر النهضة إلى الثورة الصناعية هي المرجع الوحيد للمفاهيم التي تشيد على ضوئها السياسات الثورية الرامية إلى إخراج البلاد غير الأوروبية من أوضاع وسطية مترهلة إلى أوضاع صناعية حديثة، ليست هذه الفرضية فكرة مسبقة بل نتيجة استطلاع التاريخ للواقع»[٣].

(١) العروي (ع): مفهوم الإيديولوجية، المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٢) العروي (ع): مفهوم الإيديولوجية، المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٣) العروي (ع): مفهوم الإيديولوجية، المرجع السابق، ص ١٢٥.

الكل يدرك جيدا أن الخطاب العربي في أزمة حالت دون أن يصل إلى المجتمع من فرط دوغمائيته و إطلاقيته إلى درجة أنه صار منفصما عن المجتمع وعن ذاته بصورة كلية، فلا هو يدري ما يقول، ولا يعرف المجتمع ما هو بصدد قوله، كل ما يعلمه أن يقول وفقط دون أن يفعل، لهذا يقترح العروي «التاريخانية كمنقذ للمجتمعات العربية من الأزمة ولأجل ذلك يجري كما أشرت ضرورة معاودة تقييم فلسفة الأنوار والديكارتية، وتحليل ماهية الثقافة الأوروبية ثم تباين كيف انعكست التي أسس لها الغرب مثال الإيديولوجية، الحرية، التاريخ، العقل على سياسة الخطاب والوعي العربيين»[1].

ومن هذا المنطلق تبين لي السبب الذي جعل العروي يميل إلى تبني الماركسية الموضوعية والتاريخانية كمنهج لتخطي الأزمة وهو اختيار قائم بالأساس على بعد ذرائعي مبني على إستراتيجية خطابية، حاول من خلالها العروي تسجيل التوتر والهزة التي أصابت الوعي العربي، ولعل كتابه الإيديولوجية العربية المعاصرة قد سهل لنا إمكان النفاذ إلى تعيين الوعي العربي من خلال تبنيه للماركسية الموضوعية، إذ وجد الكتاب في مجمله يتجه نحو هذه الغاية.

(١) بن مزيان ابن شرقي: التاريخ والمصير، المرجع السابق، ص١٠٧.